العنف المدرسي وعلاقته ببعض المتغيرات الشخصية

توطئة

العنف ظاهرة موجودة منذ الأزل، إلا أنها اتخذت في القرن العشرين طابعاً جديداً لا يستطيع أن يغفله أحد، وامتدت لتشمل الصغار والكبار، الأفراد والجماعات والدول، وإذا كان العنف يمثل أقسى درجات الظلم والقهر التي تقع على الكائن البشري، فإن عنف القرن العشرين وبدايات هذا القرن، تجاوز القدرة على ممارسة الظلم والقهر، وتوصل إلى ممارسة التحقير والإذعان والإذلال، وإلى تناقضات صريحة بين ظهور الإنسان العقلاني العلماني وردود أفعاله التي تتسم بمزيد من العدوان والتدمير (الأحمد، أمل ص: 111) علماً أن السلوك الإنساني الأصيل يقتضي أولوية النفس على المادة، واللقاء مع الآخر، والجهد المثمر الخلاق على الصعد كافة من أجل حياة أفضل للبشرية (م.س).

ويعد العدوان، ومن ثم العنف كأقصى درجة له استجابة شبه طبيعية لدى الأطفال يظهرونها في مراحل مبكرة من عمرهم حينما يحتاجون إلى حماية أمنهم وسعادتهم وفرديتهم.

ويؤدي السلوك العدواني إلى إلحاق الأذى الشخصي بالآخر، وقد يكون الأذى نفسياً على شكل إهانة أو خفض القيمة، أو جسدياً يحاول الطفل من خلاله السيطرة على أقرانه عن طريق: الضرب أو اللكم أو الرفس، أو رمي الأشياء أو الدفع أو البصق ... وسواها، وربما يكون العدوان لفظياً مثل إطلاق الأسماء البذيئة، والإغاظة والشتم والتسلط وملاحظات التحقير والتشاجر والتهديد بالإيذاء.

وقد دلت الدراسات التي قام بها بير كوفتز BerKowitz 1989 بارون ورتشاردسون (B ARON&Richardson 1994) أن انتشار العدوان، ومن ثم العنف متساوٍ تقريباً لدى الذكور والإناث، ودلت أيضاً أن حوالي 10% من الأطفال في عمر 10 سنوات لديهم عدوانية زائدة تصل إلى درجة العنف بشكل ملحوظ، إلا أن هذه الدراسات أشارت أيضاً إلى أن معظم الأطفال في عمر 3 ــ 7 سنوات يحرزون تقدماً في اتجاه زيادة ضبط العدوان

والعنف، إذ يحاول طفل السنتين حل الخلاف بضرب الآخر بشيء ما، في حين أن ابن الرابعة يميل للمجادلة مع الطفل الآخر ولو لبعض الوقت. أما ابن الثامنة والتاسعة فيبدو أكثر انضباطاً، ولو أن المشاجرات تستمر في هذا العمر إلا أنها تكون قليلة، أما إذا استمر الطفل الكبير 10 ــ 13 سنة في خوض المشاجرات والقيام بسلوكيات عدوانية تصل إلى درجة العنف، فإن على الآباء والمربين أن يأخذوا هذا الأمر بعين الاعتبار، وأن يستخدموا أساليب عمل سريعة وفعالة لكبح جماح هذا العنف.

إن العنف المدرسي وإن كان يبدو أقل حدة من سواه من أشكال العنف الأخرى، إلا أنه من وجهة نظرنا من أكثر أنواع العنف خطورة على الفرد والمجتمع بشكل عام، وعلى سير العملية التعليمية التعلّمية داخل المدرسة بشكل خاص، حيث يمكن أن يؤدي إلى أشكال مشوهة من العلاقات والسلوكات، ويفرز أنماطاً من الشخصيات مضطربة نفسياً وانفعالياً، وهو الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى إعادة إنتاج العنف، سواء في داخل المدرسة أو في غيرها من المؤسسات الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية المنتشرة في المجتمع.

هذا، وتتعدد أشكال العنف المدرسي بتعدد أطراف العلاقة الداخلة فيه (معلمين مع إداريين، معلمين مع معلمين, معلمين وإداريين مع التلاميذ، التلاميذ فيما بينهم، الكبار مع الصغار، الذكور مع الإناث....) وسأركز في هذه الدراسة على العنف المتبادل بين التلاميذ.

وغني عن البيان، أن العنف ليس مرحلة قصيرة يمكن أن يتجاوزها الطفل بعد مرور بضع سنين، ثم يتحول بعدها إلى شاب سوي ناضج كما يعتقد البعض، صحيح أن السلوك العدواني يبدأ في سن الطفولة، لكنه إن لم يعالج ويقوّم، فإنه يمكن أن يلازم الصغير حتى يبلغ سن الشباب، وربما يستمر مدى الحياة، فالعدوان والعنف هما من أكثر أنماط السلوك البشري ثباتاً وديمومة (عن الرواجبة 217.2000).

من هنا، وجب علينا كآباء ومربين أن نعمل على الحد من هذا السلوك الخطير ونكبح جماحه كي نحمي الأطفال منه أولاً، ونحدّ من نتائجه الخطيرة على الفرد والمجتمع ثانياً.

أولاً: ما معنى العنف بشكل عام والعنف المدرسي بشكل خاص؟

يعرف بارون و ريتشاردسون السلوك الاجتماعي العدواني (Anti Social Behavior) بأنه السلوك الذي يفتقر إلى مشاعر الرحمة بالآخرين والاهتمام بسلامتهم، ويشير العدوان على وجه التحديد إلى السلوك الذي يهدف إلى إلحاق الأذى بشخص آخر بالقوة ورغماً عن إرادته، ويدعو بنرود (Penrod,1983) هذا السلوك بالعدوان المضاد للمجتمع، ويرى ضرورة تمييزه من حالات الدفاع عن النفس، أو ما يعرف بالعدوان المشروع (Sanctioned Aggerssion) من جهة، وعن حالات الدفاع عن الآخرين من جهة ثانية الذي يسمى بالعدوان المعاضد للآخرين (Pro Social Aggression).

وتستخدم كلمة عدواني (aggression) في اللغة الإنكليزية أحياناً لوصف السلوك المفعم بالحماسة والمثابرة وهو سلوك مقبول اجتماعياً (BerKowitz 1989).

أما العنف (violence) فيشير إلى السلوك العدواني المبالغ فيه، والهادف إلى إلحاق أذىً جسدي خطير بشخصٍ آخر أو تدمير ممتلكاته.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن أعرّف العنف المدرسي (violence school) على أنه: سلوك عدواني مبالغ فيه يقوم به الإداري أو المعلم ضد التلميذ، أو التلميذ ضد تلميذ آخر، ويهدف إلى إلحاق أذىً جسدي خطير بالطفل أو التلميذ الذي وقع عليه العدوان أو بممتلكاته وحاجاته، الأمر الذي يؤدي إلى خلق أنماط شخصية مضطربة نفسياً واجتماعياً داخل المدرسة، تهدد منظومة العمل التربوي برمتها بالتراجع والفشل، و الحيد عن الأهداف التربوية المنوطة بها (الأحمد، 2003).

ثانياً: ما أشكال السلوكات العدوانية العنيفة وما أنواعها؟

يمكن تصنيف أشكال العنف في نمطين:

أ ـ نمط مادي مثل: الضرب، اللكم، والرفس، ودفع الأشياء أو رميها، والبصق، وغيرها.

ب ـ نمط لفظي عضوي: مثل إطلاق الأسماء البذيئة، والإغاظة، والشتم، والتشاجر، والتحقير، والتهديد بالإيذاء.

أما أنواع السلوكات العدوانية العنيفة لدى الأطفال فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة هي:

١ ــ عدوان ناتج عن الاستفزاز حيث يستجيب الطفل في دفاع عن الذات ضد السلوكات العدوانية لأقرانه.

٢ ــ العدوان غير الناتج عن الاستفزاز، حيث يقوم الطفل بالمقاتلة بشكل مستمر لكي يسيطر على أقرانه أو يقوم بإزعاج الأقران بالضرب أو الإغاظة أو التسلط.

٣ ــ العدوان المتفجر المفاجئ أو نوبات الغضب حيث يقوم الطفل بتحطيم الأشياء والأثاث بالمدرسة أو البيت، عندما يصبح عصبياً ويبدو وكأنه لا يستطيع أن يضبط غضبه (شيفر وميلمان 1,1996 5 3).

وإذا تأملنا هذه الأشكال والأنواع وجدناها متكاملة، وليست متعارضة، وإن عَدَّ النوع الأول مشروعاً أو مسموحاً به. إلا أن النتيجة واحدة، وهي أن أشكال العدوان المختلفة يمكن أن تفرز مزيداً من العدوان وتؤدي إلى العنف والعنف المضاد.

ثالثاً: ما تفسيرات السلوك العدواني وما أسبابه؟

هنالك نظريات متعددة تفسر أسباب العدوان والعنف عند الأطفال، إذ يدور جدال حاد بين علماء النفس الاجتماعي منذ فترة طويلة، حول ما إذا كان العدوان يتحدد بيولوجياً لدى الناس عموماً ولدى الأطفال على وجه الخصوص (أي أنه وراثي) أم أنه متعلم، فعلى سبيل المثال: نرى فلسفة هوبز (Hobbs.1651) تنظر إلى الناس على أنهم يميلون بطبيعتهم إلى التنافس والعدوان، وأن وجود السلطة داخل المدرسة ضروري للحيلولة دون نشوء الصراع والاقتتال بين الأطفال (Bellur1995,168).

ويشارك فرويد و لورنز آراء هوبز المتشائمة هذه بشأن الطبيعة البشرية، حيث ترى نظرية فرويد في التحليل النفسي، أن الغرائز تهدف إلى تخفيض التوتر والاستثارة وصولاً إلى القضاء عليهما في نهاية المطاف.

وقد ركز فرويد في البداية على غريزة الحياة (iros) أو غريزة البحث عن اللذة والحفاظ على الذات، إلا أنه افترض فيما بعد وجود غريزة الموت وتدمير الذات (thanatos)

ونظراً لأن هاتين الغريزتين تعيشان في صراع دائم، فإن إشباع غريزة الموت يتم عن طريق تحويل وجهتها نحو الآخر.

ولكن على الرغم من ذلك تبقى نظرية فرويد عصية على الفحص التجريبي كما أنها تُحسن تفسير ما وقع من أحداث أكثر مما تحسن التنبؤ بما سيقع.

أما لورنز فيرى أن العدوان غريزي، ويحتاج إلى الانطلاق بين فينة وأخرى حتى لا يتراكم ويصل إلى مستويات عنف خطيرة (م.س).

ويؤكد دولارد وزملاؤه (Dolard etal) فرضية الإحباط ـ العدوان إذ يرون أن الإحباط يؤدي إلى استجابة عدوانية دائماً إلا أن هذه الاستجابة قد لا تتجه نحو مصدر الإحباط بشكل دائم، بل قد تتجه إلى هدف سهل المنال مثل كبش الفداء (مكلفين وغروس 360,2002).

وقد أفرد أليس في كتابه العقل والانفعال (Ellis,1977) فصلاً خاصاً للأفكار غير العقلانية التي تدعم العدوان والعنف وتشير بعض هذه الأفكار إلى أنه: لا بد من عقاب هذا وذاك، ولا بد من الانتقام الحاسم ممن يكيدون لي، بعض الناس أشرار وعلى درجة عالية من الخسة والنذالة، ولذلك فهم يستحقون العقاب والتوبيخ، العدوان مشروع، العدوان يرفع من تقدير الذات ويعمل على محو الهوية السلبية، الضحايا يستحقون العدوان (العقاد 122,2001-124).

من ناحية أخرى فإن نظرية التعلم الاجتماعي لـ باندورا وأتباعه (Bandora,1965) ترى أن السلوك العدواني متعلم من خلال التقليد والتعزيز والمشاهدة، وقد قام باندورا وزملاؤه في الستينات بدراسات حول العدوان والعنف أظهرت أنه يمكن تقوية الميول العدوانية للطفل من خلال المشاهدات المباشرة لنماذج تتصرف بعدوانية مثل: الرفاق والأخوة، الآباء والمعلمين والكبار عموماً، ومشاهدات أخرى عبر التلفزيون والسينما وسواها.

وفي إحدى تجارب باندورا، قام أطفال تتراوح أعمارهم بين الثالثة والخامسة بمشاهدة شخص بالغ (نموذج) يتصرف بطريقة عدوانية نحو دمية مصنوعة من البلاستيك، واقتضت إجراءات التجربة أن يلعب الأطفال أنفسهم بالدمية ذاتها إثر عملية المشاهدة للنموذج، وقد أشارت النتائج إلى أن الأطفال الذين كانوا أكثر ميلاً لتقليد النموذج هم الذين شاهدوه يتلقى تعزيزاً على سلوكه العدواني، أما الأطفال الذين شاهدوا النموذج ذاته يتلقى العقاب على

سلوكه العدواني كانوا أقل ميلاً لتقليده. أما أطفال المجموعة الضابطة، فقد وقعوا في موقع متوسط بين المجموعتين السابقتين من معدل استجاباتهم العدوانية (العيسوي، دون عام، 156-159).

وتشير نتائج هذه البحوث وسواها مما جرى في السياق ذاته إلى أن المعايير التي يستخدمها الناس في الحكم على السلوك بأنه عدواني أم غير عدواني هي:

١ ــ قصد إلحاق الأذى.

٢ ــ وإلحاق الأذى الفعلي.

٣ ــ وأخيراً مخالفة السلوك لمعايير وتقاليد مرعية.

ولكن بدلاً من التركيز على الظروف التي تنشط دوافع الفرد إلى العدوان، أو على الظروف التي تقلل من مستوى الضبط العقلاني لديه، يستحسن في تقديري أن نبحث عن الشروط أو الظروف التي تجعل من السلوك العدواني في موقف معين يبدو مناسباً ومشروعاً.

وهكذا يمكن القول إن العدوان يزيد احتمال تعلمه، عندما يكافأ الأطفال لقيامهم بسلوكات عدوانية، وذلك عندما يحصلون على ما يريدون، أو يجذبوا انتباه الراشدين الذي يهمهم بالدرجة الأولى (مكلفين وغروس 362,2002).

ومن العوامل الأخرى التي تسبب أو تُعدم العنف هي اتجاهات المجتمع ذاته نحو العدوان، فالزيادة المطردة في جرائم العنف في الولايات المتحدة (بما في ذلك إساءة معاملة الزوجة والأطفال) تشير إلى عدم قدرة الأفراد على ضبط ذواتهم ولدى أطفالهم (شيفر وميلمان 354,1996).

لقد شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تزييناً للعنف في وسائل الاتصال الجماهيري، إذ تقوم بعض المجموعات الفوضوية مثل جماعة القبلة (Kiss) بتمجيد التخريب والوحشية، ويبدو أن هناك ثقافة خاصة بالعنف لدى بعض الجماعات في المجتمع الأمريكي، وهذه الثقافة تعتنق معايير اجتماعية قائمة على العنف مثل: العين بالعين، الغاية تبرر الواسطة، ومعلوم أن كثيراً من قوانين المجتمع الأمريكي تقوم على التنافس البغيض، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة العدوان ومن ثم زيادة العنف (م.س).

ومن الملاحظات الجديرة بالذكر، أن الأطفال الذين يأتون من بيوت غاب الأب عنها لفترة طويلة (3-5) سنوات يظهرون تمرداً على التأثير الأنثوي للأمهات اللواتي يحملن أعباءً

إضافية بأن يصبحوا شديدي العدوان، وغالبية هؤلاء يتصرفون كما لو أنهم يعتقدون أن التصرفات العدوانية تجاه الآخرين هي دليل الرجولة(م.س).

ولكن بغض النظر عن البيئات والمجتمعات التي يعيش أولئك العدوانيين في ظلها، فإنهم يتخيرون أماكن مناسبة لأنشطتهم العدوانية، حيث تقع معظم هذه الأنشطة في باحات المدارس وفي أبهائها المزدحمة، ولا سيما في الزوايا المفتقرة إلى الرقابة والإشراف.

ومن الملاحظ، أنه كلما صغر الطفل أو التلميذ ازداد نصيبه من الوقوع ضحية المعتدين أو المتسلطين..... لأن العدواني يتعمد أن يختار لنشاطه العدواني شخصاً أصغر منه سناً أو أضعف منه جسداً، كما أن الضحايا يتحملون جانباً من هذا العدوان لأنهم ذو مواصفات نفسية خاصة تجعلهم هدفاً سهلاً لتسلط المعتدين، إذ يتمتعون بحساسية زائدة، ويميلون إلى الهدوء والحذر كما أنهم أكثر قلقاً من أقرانهم، وينظرون إلى العنف نظرة سلبية ويميلون إلى عدم التصدي والمواجهة.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الضحايا غالباً مدللون، ويأتون من أسرٍ تغدق عليهم من طرق الحماية والعناية ما يفوق الحدود المعقولة بحيث لا يتمكنون من الوقوف في وجه ما يعترضهم من مشكلات في حياتهم (الرواجبة 219,2000-223).

هذا، ولا بد من الإشارة إلى أن معظم الدراسات المتعلقة بالعدوان والتسلط أجريت على الصبية، لكنها أشارت إلى أن هذا النشاط لا يقتصر على الذكور، فالرغبة تخالج نفوس الفتيات مثلما تخامر نفوس الفتيان، ولكن مع اختلاف في الطرائق والأساليب، فالإناث يملن إلى:بث الشائعات المؤذية ضد الضحية بين رفيقاتها، ويعملن على حث الأخريات على الانصراف عنها، ويحاولن الاستبداد، والتحكم بالضحية، عن طريق اللجوء، إلى طريقة العزل الاجتماعي والقطيعة(م.س، 223).

هذا ويمكن أن نذكر أسباباً أخرى تغذي العنف داخل المدرسة مثل:

- شعور التلميذ بعدم المساواة في التعامل داخل المدرسة وخارجها.
- عدم قدرة التلميذ على التعبير عن ذاته.
- عدم شعور التلميذ بالمكانة الاجتماعية داخل الأسرة أو بين الأقران في المدرسة.

ـــ إحساس التلميذ بأنه مظلوم من قبل من يتعاملون معه من المعلمين والأهل والأقران.

ـــ إحساس التلميذ بأنه مكبل ومسلوب الحرية والإرادة.

وإذا ما تأملنا في التفسيرات السابقة للعدوان والتي تستند إلى نظريات بيولوجية ونفسية واجتماعية عديدة، نجد أن كلاً منها قد فسّرت جانباً من السلوك و لم تفسر السلوك كله، لكن إذا أخذناها في مجملها نجد أنها متكاملة وليست متعارضة.

رابعاً: بعض المتغيرات الشخصية ذات العلاقة بالعنف عموماً والعنف المدرسي على وجه الخصوص:

للوقوف على بعض المتغيرات الشخصية ذات العلاقة بالعنف المدرسي عدنا إلى عدد من الدراسات السابقة وأجرينا لها دراسة تحليلية.

لقد دلت هذه الدراسات أن هنالك ارتباطاً دالاً بين العنف وكثير من المتغيرات الشخصية مثل الذكاء، والقلق، والاكتئاب، وتقدير الذات، والتحصيل الدراسي، واضطرابات الشخصية بأنواعها المختلفة.

وفيما يلي عرض استقصائي سريع لبعض من هذه الدراسات والأبحاث التي أشارت إلى هذه العلاقات بوضوح:

دراسة أحمد إسماعيل وتوفيق عبد المنعم (1996)، هدفت هذه الدراسة إلى تبيان العلاقة الارتباطية بين بعض المتغيرات النفسية المرتبطة بممارسة العنف على الطفل (10-8) سنوات وأشارت النتائج إلى وجود ارتباطات دالة بين العنف و العصابية والقلق، والاكتئاب وعدم الرضا الزواجي (إسماعيل وعبد المنعم 1996,91-119).

وهدفت دراسة داليا مؤمن (1997) إلى تعرف طبيعة تفاعلات الأسر التي تمارس العنف الجسدي على أبنائها مقارنة بتفاعلات الأسر السوية، وأسفرت النتائج عن أن الأسر العنيفة أقل تواصلاً من الناحية الوجدانية، وأقل قدرة على حل المشكلات، وأقل رضا عن علاقتها بأبنائها وأكثر صراعاً بالنسبة للتفاعل الأسري وأقل تنظيماً وتماسكاً (مؤمن 1997,178-182).

في حين هدفت دراسة كازدين وآخرون (1985) إلى تحديد العلاقة الارتباطية بين العنف الجسدي وبعض المتغيرات النفسية ولا سيما تقدير الذات، إذ تبين أن الأطفال الذين يتعرضون

للعنف الجسدي بشكل دائم ينخفض لديهم تقدير الذات باستمرار، كذلك أشارت الدراسة ذاتها إلى تدني التحصيل الدراسي لدى هؤلاء الأطفال (Kazdin etal,1985).

أما دراسة فورستروم وآخرون (1985) فقد أجريت على مجموعات ثلاث من الأطفال والمراهقين، المجموعة الأولى تنحدر من أسر تمارس العنف على أبنائها، والثانية تنحدر من أسر تشيع فيها السعادة، والمجموعة الثالثة تنحدر من أسر غير عنيفة، وأشارت النتائج إلى أن أطفال المجموعة الأولى أظهروا قدراً كبيراً من القلق والاكتئاب والعدوان مقارنة بالمجموعة الثانية والثالثة.

وأشارت دراسة هوليجزورث (1991) إلى أن العنف الذي يمارس على الأطفال سواء كان جسدياً أم نفسياً نتج عنه العديد من الاضطرابات والمشكلات السلوكية مثل فقدان الثقة واضطراب مفهوم الذات، ونقص المنافسة مع الذات Self Competence بشكل ملحوظ، كما أن وجهة الضبط لدى هؤلاء الأطفال يغلب عليها أن تصبح خارجية، حيث يميل الطفل لأن ينسب كل ما يحدث له وبخاصة الأشياء السلبية إلى من يحيط به ويرفع المسؤولية عن كاهله.

وأشارت دراسات أخرى كثيرة: (Mosca & Becker1992,Mansal & Hurrelmann1994, Spigelmanrtal, knutsonl1995) إلى نتائج مماثلة حيث وجدوا ارتباطاً موجباً بين تعرض الطفل للعنف ومشاعر القلق والاكتئاب، وزيادة المشكلات السلوكية، وقلة التفاعل الاجتماعي، إضافة إلى نقص مهارات التكيف والتعايش مع الآخرين وسلبية الاتجاه نحو المجتمع الخارجي.

خامساً: العنف المدرسي نتاج للعنف الأسري والإعلامي:

ذكرت الرابطة النفسية الأمريكية أن الطفل الذي يبلغ ثمانية عشر عاماً يشاهد ما يبلغ 16.000جريمة قتل و 200.000 فعلٍ من أفعال العنف في الأسرة أو عبر الأفلام، أو على شاشة التلفزيون.

وعنف الأطفال غالباً ما يثاب من قبل الأهل أو المعلمين أو حتى القوانين،لذا فعندما يتعرض الطفل لكثير من مواقف العنف يترسخ لديه الاعتقاد بأن العنف يُعد شيئاً مقبولاً، وهنالك كثير من الأطفال الذين يعتقدون أن العنف هو أفضل السبل للتعامل مع المشكلات وحلها.

صحيح أن وسائل الإعلام مسؤولة إلى حد كبير عن انتشار العنف، ولكن ليس من العدل القول، إن العنف الذي تتناقله وسائل الإعلام يؤثر في كل طفل بالطريقة ذاتها، فهنالك بعض الأطفال الذين يسهل تأثرهم بمشاهد العنف، والأطفال الأكثر تأثراً بمشاهد العنف التي تعرضها وسائل الإعلام يرجع بالدرجة الأولى لتعرضهم لمشاهد واقعية من العنف داخل منازلهم، أو لأنهم هم أنفسهم ضحايا لأحداث عنف داخل الأسرة في الأعم الأغلب.

وتعد خبرة العنف على الطفل داخل الأسرة وبخاصة من قبل الوالدين خبرة جد خطيرة حيث يرى كل من توميكنز Tomkins 1979 وسيركس Sirkis 1984 وموشير Mosher 1988 أن التطبيع الاجتماعي للوالدين الذي يتسم بالاتجاه العقابي Punitive والعنيف يسبب ضغطاً واضطراباً لدى الطفل منذ نعومة أظفاره، وهذا يعكس سوء تطبيع اجتماعي لوجدان الوالدين ينتقل بدوره إلى الأبناء في مرحلة الطفولة المبكرة حيث ينشأ الطفل في حالة جوع للدفء والمشاركة والحنو والاحتضان والتعاطف ويشعر أن الوالدين يهملانه ولا يهتمان به وقد لاقت هذه النظرة كثيراً من التأييد ليس فقط على مستوى التنظير بل أيضاً على المستوى الامبريقي حيث أثبتت دراسة ديباولا آرلاند Dipaola Arland 1995 أن الأطفال العنيفين في المدرسة ينحدرون من أسر يسودها العنف سواء بين الأبوين أو بينهما وبين الأبناء أو بين الأبناء أنفسهم.

ويتميز أطفال الأسر العنيفة بتوقعاتهم السلبية وغير المرضية نتيجة تلقي العقاب الجسدي والإساءة الأسرية، وتتشكل لديهم أعراض قابلية الإيحاء وسهولة الاستهواء والإغراء مقارنة بأطفال الأسر السوية.

وحقيقة الأمر، أن العنف المدرسي ليس إلا انعكاساً للعنف الذي يحدث خارج المدرسة، فالأطفال المتواجدون في المدرسة هم جزء من ذلك المجتمع الصاخب الذي يمارس العنف خارج أسوار المدرسة.

وقد أكد هوربيتس Horpets ذلك عندما قال: « إذا كانت البيئة خارج المدرسة عنيفة فإن المدرسة ستكون عنيفة حتماً » (م.س).

إن مكونات ثقافة العنف توجد في الأسرة أولاً، وفي مؤسسات المجتمع ثانياً. كما أن الإعلام بوسائله المختلفة المرئية والمسموعة والمقروءة يروّج لهذه الثقافة بشكل مباشر أو غير

مباشر عبر الأفلام السينمائية، والدراما والبرامج التلفزيونية المختلفة، فقد بلغت نسبة عـــرض أفلام العنف في الدول الغربية عموماً ما يقرب 75 % من أوقات البث التلفزيـــوني في حـــين تراجع عرض المواد العلمية والاجتماعية 25 % (م.س).

ولا أظن أن حال الدول العربية أفضـــل من ذلك بكثير، فهي تستورد الكثير من هـــذه الأفـــلام وتعرضها على شاشاتها.

ونظرة سريعة إلى مفردات البرامج الكرتونية على سبيل المثال تبين الكم الهائل والنـــوع السيئ لمفردات العنف التي تستخدمها، فكم مرة تتردد كلمات مثـــل: الأعـــداء، القتـــال، الصراع، الموت، الهزيمة، سحق الأشرار، تدمير الأعداء، ..... الخ.

إن هـــذه المفردات تعمل على تحطيم نفسية المشاهد طفلاً كان أم مراهقاً وتصيبه بحالـــة من التمزق النفسي والقلق، والتوجس من كل ما يدور حوله، حتى إذا ما واجهته أية مشـــكلة في علاقته بأقرانه يستحضر من ذاكرته أحد هـــذه المشاهـــد العنيفة التي يراهـــا، ويســـقط الإيحاءات السلبية التي تراكمت في ذهنه على مشكلته ويعالجها بالأسلوب ذاته.

وكانت النتيجة من كل هذا وذاك أن تحول العنف الذي يمارس داخل المدارس من سلوك شاذ كريه وغير مقبول إلى سلوك عـــادي مألوف، وغدت « مدرسة المشاغبين » على ســبيل المثال عملاً رائعاً يتبارى التلاميذ فيما بينهم ليأخذ كل منهم دور البطل فيها.

إن الاستسلام لثقافة العنف وتبعاتها من قبل الآباء والمربين عموماً يهدد عملنا الـــتربوي برمته بالتصدع والانهيار.

سادساً: اقتراحات للحد من سلوك العنف عند الأطفال وحمايتهم منه:

لعله من المفيد في البداية أن نتحدث عن كيفية وقاية الأطفال وحمايتهم من العنف قبـــل الحديث عن سبل الحد من سلوك العنف بعد وقوعه، فهناك إجراءات وقائية كثيرة يمكـــن أن يلجأ إليها الأهل والمربون عموماً منذ الطفولة المبكرة، لأنها يمكن أن تقي الأطفال من العـدوان وتقلل من إمكانية الوقوع في العنف وممارسته أذكر منها:

ـ ***العمل على تجنب الممارسات والاتجاهات الخاطئة في تنشئة الأطفال:***

حيث أظهرت معظم الدراسات السابقة التي أشرت إليها، أن الآباء العدوانيين ينتجون غالباً أطفالاً عدوانيين جداً وضعيفي الانضباط، وقد يكون الأب متسيباً أو متسامحاً أكثر من اللازم، يستسلم للطفل ويستجيب لمتطلباته مما يجعل الطفل متسيباً هو الآخر وفوضوياً، وهنا نؤكد أهمية النظام الحازم في التربية، وعدم اللجوء إلى التسيب وترك الحبل على الغارب بحجة التسامح، فالتسامح لا يعني التسيب قط بل القصد منه إعطاء فرصة للطفل كي يعيد النظر في سلوكه العدواني ويعمل على التخلص منه.

ـ ***العمل على الإقلال من تعريض الأطفال للعنف المتلفز:*** لقد دلت الدراسات التي أجراها باندورا ودراسات أخرى حديثة (مكلفين وغروس 2000) أن عادات مشاهدة التلفزيون لدى الأولاد في 8 أو 9 سنوات قد أثرت في سلوك العدوان لديهم في تلك الفترة، واستمرت حتى مرحلة المراهقة المتأخرة، وكلما كانت البرامج التي يفضلها الأطفال في الصف الثالث الابتدائي (10-9) سنوات أكثر عنفاً زاد السلوك العدواني لديهم في تلك المرحلة وفي مرحلة ما بعد 10سنوات (هوجيهي وآخرون 1998،99).

ـ ***العمل على تنمية الشعور بالغبطة والسعادة لدى الأطفال:*** إن الأطفال السعداء كما دلت الدراسات أعلاه يميلون لأن يكونوا لطيفين نحو ذواتهم ونحو الآخرين بطرائق ودودة متعددة.

ـ ***العمل على أن تكون التراعات الزوجية في حدها الأدنى:*** إن الأطفال يتعلمون كثيراً من سلوكاتهم الاجتماعية عن طريق ملاحظة أبويهم.

ـ ***العمل على توفير نشاطات بديلة للأطفال*** جسدية أو فكرية أو ترفيهية كاللعب الخارجي بأنواعه والعزف والرسم وسواه من الأنشطة التصعيدية والتفريغية الأخرى.

ـ ***زيادة إشراف الراشدين على الأطفال والعمل على مشاركتهم أنشطتهم المحببة*** اللعبية والترفيهية قدر الإمكان، فصغار الأطفال يصبحون أكثر هدوءاً عندما يكون أحد الراشدين قريباً منهم ليقوم بمهمة الأنا الخارجية (External Ego) التي تصغي وتشارك وتتابع وتهتم وتخصص وقتاً هاماً للعناية بالأطفال.

إما إجـــراءات الحـــد من سلوك العنف فهي كثيرة أذكر منها على ســـبيل المثـــال لا الحصر ما يلي:

ـــ العمل على تعزيز السلوك المرغوب فيه:

غالباً ما نفترض نحن الكبار أن السلوك الإيجابي الذي يتبدى عن الأطفال هو أمر مفـــروغ منه، وبالتالي ما نتجاوزه عن قصد أو عن غير قصد دون أن تصدر عنا إشارات استحســـــان (Bellur 1995) .

إنه لمن المؤكد، أن بعض الأطفال على الأقل، إن لم يكـــن جلّـــهم يرغبـــون بـــالمديح والمكافآت المادية والمعنوية إثر قيامهم بسلوكات إيجابية ترضي الأهل والمعلمين، لذا يجـــب ألا نبخل عليهم بهذه المكافآت بين الحين والآخر، شرط أن تقدم لهم في المكان والزمان المناســبين أي إثر السلوك الإيجابي الذي يظهرونه مباشرة كي يعلموا أنهم كوفئوا لقيامهم بهذا الســـلوك تحديداً وليس لشخصهم أو لأي أمرٍ آخر.

ـــ العمل على تجاهل السلوكات العدوانية عمداً:

من المفيد جداً مع كثير من الأطفال ألا يعيرهم المربون أي اهتمام عندما تصـــدر عنـــهم سلوكات عدوانية، إلا إذا أدى هذا السلوك إلى إلحاق أذى جسدي كبـــير بـــالآخرين، لأن كثيرين من الأطفال يبغون لفت انتباه المربين إليهم عندما يتشاجرون، لذا يجب ألا نوفر لهـــم هذه الفرصة التي تعمل على تعزيز السلوك العدواني لديهم، ويستحسن أن نتعاطف مع الطفـــل الذي وقع عليه العدوان (الضحية).

ـــ العمل على تعليم الأطفال العدوانيين بعض المهارات الاجتماعية، مثل مهارة تـــأكيد الذات(Assertiveness) لأنها تستثير غضباً أقل من قبل الطفل ذاته، وتؤدي بـــه إلى الطاعـــة أكثر من الاستجابات العدوانية، فعندما يؤكد الطفل ذاته، ويدافع عـــن حقوقـــه بطريقـــة مشروعة، ولا يلجأ إلى العنف والإكراه لحل صراعاته فإنه غالباً ما يلقى الاستحسان والقبول، ويتوصل إلى أهدافه بسهولة ويسر.

وهنالك طرائق عديدة يستطيع الطفل أن يؤكد ذاته من خلالها كأن يخبر الطفل المعتدي بالسلوكات التي تزعجه، ولكن بأسلوب لفظي لطيف أو مقبول، ويصف له سلوكه المزعج وصفاً موضوعياً، ويطلب منه القيام بسلوكات جديدة بديلة تساعدهما على استعادة التواصل الإيجابي بشكل أفضل، ومن المفيد أيضاً أن يدخل المُعتدى عليه في حوار مع المعتدي ويقول له على سبيل المثال أرجو ألا تفعل كذا وكذا.. إن هذا يزعجني وإن لم يتمكن الطفل من هذا الحوار المباشر، فيمكن أن يتحاور مع رفيقه بشكل غير مباشر عن طريق تبادل الرسائل المكتوبة، التي تنطوي على مشاعر الحب والدفء، وقد يكون من المفيد في هذا السياق أيضاً استخدام مهارة التفاوض لحل الصراعات التي تنشب بين الأطفال بشأن الألعاب أو الحاجات والممتلكات الأخرى... (أعطيك هذه تعطيني تلك..).

ـ الحوار مع الذات(Self Talk):

من المفيد جداً أن يتعلم الطفل الحوار مع ذاته، كي يقلل من سلوك العدوان لديه كأن يعد للعشرة، أو يقف ويفكر قبل أن يعتدي، أو يقول لنفسه إذا ضربت رفيقي سأخسره..

ـ التفريغ:

يعد أسلوب التفريغ (Catharsis) وفق المنهج الفرويدي و الإيتولوجي من الأساليب التي يمكن اعتمادها للحد من العدوان ولو أن هذه الفرضية لم تحظ بتأييدٍ واسع إذ يرى البعض أن مشاهدة العنف في الأفلام والتلفزيون قد يؤدي إلى زيادة العدوان بفعل عملية التعزيز السلبي للسلوك العدواني، ولكن يمكن التفريغ بشكل آخر عن طريق نشاطات اللعب المختلفة، فاللعب فرصة لإشباع الرغبات التي قد لا تشبع في الواقع، كما يعطي مجالاً للإشباع الرمزي والتخلص من النزعات العدوانية، إذ يمكن أن يضرب الدمى وأكياس اللكم والصلصال وغير ذلك...

ويمكن اللجوء إلى استخدام العقاب للحد من بعض السلوكات العنيفة التي يقوم بها الطفل أحياناً والتي تلحق أذىً كبيراً بالآخر، وللعقاب أشكال كثيرة مثل: عزل الطفل في مكان محدد لفترة قصيرة ولكنه آمن ـ وعدم تبادل الحديث معه ـ وحرمانه من بعض الأشياء المحببة لديه مثل برامج التلفزيون أو اللعب أو سواها، ولكن على أية حال، ينبغي تجنب العقاب البدني الضار فهو وإن كان يؤدي إلى الكف الفوري لسلوك العدوان، إلا أنه

يولّد غالباً مزيداً من العدوان لاحقاً ويؤدي إلى سلوكات غير مقبولة في مكان وزمان آخرين إضافة إلى أن المربي الذي يستخدم العدوان سيكون نموذجاً يتعلم الطفل منه العدوان والعنف.

وبدلاً من اللجوء إلى العقاب، على المربي أن يسعى إلى تنمية الغيرية وحب الآخر والتعاون معه، وأهم من كل هذا وذاك، على الأهل والمربين عموماً أن يدركوا أن الطفل العدواني الذي يلجأ إلى سلوك العنف كبديل وحيد يعاني من مشكلة أو أكثر في الغالب، لا بد من البحث عنها لمعرفتها، وتحديد أسبابها، والعمل على تجاوزها، وربما يحتاج الأمر إلى أن يخضع الطفل إلى برنامج إرشادي أو علاجي أو كليهما.

ويرجع في مثل هذه الحالات أن تكون حاجات الطفل الأساسية والنفسية غير مشبعة مثل الحاجة إلى الحب والمكانة والتقدير وسواها من الحاجات الأخرى التي تُشعره إذا ما أُشبعت بالأمن والاطمئنان.

إنه لمن الضروري أخذ العوامل السابقة جميعها بعين الاعتبار، مع التنويع في استخدامها من وقت لآخر، وبين طفل وآخر، لأنها تسهم في الحد من السلوكات العدوانية العنيفة إلى حدٍ كبير.

المراجع المعتمدة

- الأحمد، أمل (2001): بحوث ودراسات في علم النفس، مؤسسة الرسالة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان.
- أحمد السيد إسماعيل، توفيق عبد المنعم (1996): دراسة لبعض المتغيرات النفسية المرتبطة بإساءة معاملة الطفل لدى بعض الأسر المصرية، مؤتمر جامعة عين شمس، قسم طب الأطفال ومركز دراسات الطفولة.
- داليا محمد عزت مؤمن (1997): الإساءة البدنية للأطفال وعلاقتها بالتفاعلات الأسرية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.
- روبرت مكلفين ورتشاد غروس (2002): مدخل إلى علم النفس الاجتماعي، ترجمة ياسين حداد، موفق الحمداني وفارس حلمي، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، الأردن.

ـــ الرواجبة، عايدة (2000): موسوعة العناية بالطفل وتربية الأبناء، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان.

ـــ شارلز شيفر، هوارد ميلمان (1996): مشكلات الأطفال والمراهقين وأساليب المساعدة فيها، ترجمة نسيمة داود ونزيه حمدي، ط1، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

ـــ العقاد عصام عبد اللطيف (2001): سيكولوجية العدوانية وترويضها، دار غريب، القاهرة.

ـــ عبد الرحمن العيسوي (من غير عام): سيكولوجية العنف والعدوان، دار الأنوار، الإسكندرية.

ـــ م. هوجيهي وآخرون (1998): الأطفال المشكلون، ترجمة عدنان الأحمد وتابع السر عبد الله الشيخ، دار مشرق مغرب، دمشق، سوريا.

المراجع الأجنبية

- Baron, R.A.& Richardson, D.R.(1994):Human Aggression (2 nd edition) New York Plenum.
- Becker, E.L, (1992): Child Abuse and Negative Life Experiences: Analysis of Depression and Dissociation Asmediator Variables. Dissertation Abstracts International, 53 (1).
- Bellur, R. (1995): Inter Personal Attraction Revisted Cross – Cultural Conceptions of Love, P. 24 – 26.
- Brislin, R. (1993): Understanding Culture's Influnce on Behavior, FL: Har Court Brace Jovanovich.
- Berkowitz, L. (1989): The Frustration Aggression Hypothesis: an examination and Reformation Psychological Bulletin, PP. 59 – 73.
- Dipaola, A.C.N. (1990): Psychodynamic and Cognitive Contributions to the Ecological Model of child Abuse: An Abusive Parent's Internal Perspective, Disseration Abstracts International, 51 (3).
- Knutson, J.F. (1995): Psychological Characteristics of Maltreated Children: Putative Risk. Factors and Consequences. Annual Review of Psychology (46) p.401 – 431.
- Penrod, S. (1983): Social Psychology. Engelwood Cliffs. Nj Prentice – Hall.